الكتاب الأول

نقد المعرى لعلاقات الجنس

الفصل الأول

عدو المرأة

---

(١) نقد المعرّيّ للمرأة

كان موضوع المرأة من الأمور التى سكب المعرى كثيراً من كلامه فيها . بل يكاد يكون أبرز ما عُنى به ، وحاور نفسه فيه ، وأطال ذكره ونقاشه . وما كان للمرأة أن تبدو حفية بهذا الذكر ، ولا راضية عنه . لأن المعرى عرض على الملأ كل مثلبة ونقيصة فى المرأة ، فنقدها نقداً عنيفاً لا يعرف هوادة الذين يعالجون مواضيع النساء .

لم ينظر إليها كأم حنون ، ولا مرضع حادبة . ولا ربّة دار مربية ، ولا زوج صالحة ، وإنما تطلع نحوها بالنظر الشزر ، فرآها من الجانب الذى تبدو فيه مثالبها فأمسك بهذه المثالب واحدة بعد واحدة ، وراح ينقدها حتى أتى عليها جميعاً .

ولا ينبغى أن نعلل نقده لعيوب المرأة ببعده عنها ، وجهله إياها . فإن أماً ولدت أبا العلاء ، وخلته بعد موتها باكياً عليها ، راثياً لها بشعر يفيض دمعاً وحزناً ، لا ينبغى لمثله أن يجحد فضل الأم . ولقد تمنى أبو العلاء

لو حُمّ موته ثم نادى مؤذن يوم الحشر فهفت عظامه وهى بالية فى التراب إلى عظام أمه وهى رميم من طول الشوق والمنأى ، فبكى بعضه إلى بعضها فعل المتلاقيين بعد طول السفار فقال(١)

ووافتنى إلى الأجداث أمٌ ... يعزّ علىّ أن سارت أمامى
فليت أذين يوم الحشر نادى ... فأجهشت العظام إلى العظام

فجعه موتها فطال عليه حزن كلما رث تجدد ، حتى لو أنه شرح فيه لاعجه ووصف به وجده لأفنى الزمان بالأحزان . فكان مما كتب إلى خاله أبى القاسم بن سبيكة عن لوعته لفقد أمه(٢) « وحزنى لفقدها كنعيم أهل الجنة ، كلما نفد جُدّد ، وشرحه إملالُ سامع وإفناءُ زمان » .

فشاعر هذه حال قلبه الباكى على أمه ، وهى من النساء ، يُستغرب أن تملى عليه البغضاء نقد المرأة ، ذلك النقد الذى ما أثر عن أحد قبله ، ولا عرف فى العرب من أحد بعده .

والواضح أن هذه النقمة على النساء كانت منه بعد رجعته من العراق وفى كهولته وشيخوخته . ولم يؤثر عنه فى شبابه شعر يذم فيه النساء كذمه إياهن فى اللزوميات .

ولا شك أنه عرف حال المرأة فى أمصار الشام ، ثم فى بغداد خاصة . وكانت بغداد يوم زورته لها فى زهوة أيامها . وقد طال ماحدثنا مؤرخو الأدب الأقدمون والمحدثون حديث تلك الفترة عن أخبار الخلعاء والمخنثين والمجان . وما كان لهم من اللهو والمقاصف مع النساء . وما كانت تتمتع به المرأة العراقية من حرية فى السمر والغناء ، وما كان يرى فى مجتمع العرب من الجوارى اللواتى لم يخل منهن بيت عامر ، وقد اشعن الخمرة والهوى .

إن عالماً هذه طحمته الفاسدة ، وهذه نساؤه الماجنات ، قد أحدث فى

---

(١) شرح التنوير لسقط الزند ط . المعارف ١٩٢٤ ج ٢ ص ١١٦

(٢) رسائله ط بيروت ص ٦٩ واكسفورد ص ٢٩

نفس المعرى الصالح ، الذى تقشف واعتزل الناس ، نقمة على المرأة . فأرسل على لسانه ذلك النقد الزعاف لها . ومحتمل أن تكون هنالك عوامل ثانية سأحاول استنباطها فى الكلام على نزعة أبى العلاء الجنسية .

وكيف دار الأمر فإن المرأة فى عصر المعرى كانت على حال توجب النقد . وينبغى أن نقر بأن العهد العباسى الذى انصرف فيه خلفاؤه وأمراؤه إلى شؤون السياسة وفتنها جعلهم يرمون حبل المجون على غارب الأمة . حتى بدت أواخر أيام العباسيين متداعية الأخلاق ، مؤذنة بالانحلال ، شأن الأمم فى نهاية عهودها بالمدنية ، كقديم أثينا وروما وحديث باريس . فوجب أن تستهدف المرأة فى مثل هذه العصور إلى نقد المصلحين الذين يرومون الأخلاق لبقاء الأمم . ومن أجدر من حكيم المعرة بمثل هذا الإصلاح الاجتماعى ، والمرأة فيه عمد الخيام ، وركن البناء . وقد يعلل نقد المعرى للمرأة ، بمذهبه فى نفى الزواج وإفناء العالم ، لأنه يرى فناء الدنيا وإهلاكها بتعطيل النسل ، وإبادة المواليد ، فيكثر منه مثل قوله فى اللزوميات .

كونى الثريا أو خضار — أو الجوزاء أو كالشمس لا تلد
فلتلك أشرف من مؤنثة نجلت فضاق بنسلها البلد

فإذا عرفنا أن دوافع نقده للمرأة نزعته النسلية ، ونقمته على مجانة عصره ومجتمعه ، ظهر لنا نقده وفق هذا الاستقراء نقداً (ذاتياً) وليس (موضوعياً) وصح أن نصنفه قسمين :

١ — نقد لأخلاق المرأة .
٢ — نقد لطبيعة المرأة .

(٢) أخلاق المرأة

لقد جنى جمع التأنيث على المرأة عند المعرى . فهو حين شاء وضعها فى ميزان نقده وجد الكفة عتيدة . والقسطاس قائماً . فنظم قصيدتين مطولتين

على روى التاء وردف الألف ، وقليلا مانظم الطوال فى اللزوميات . فجاءت قوافى تينك القصيدتين جموع تأنيث . وأعانت أبا العلاء على نقد النساء .

هجم بالتلوام على المرأة ، فكانت أول دعوة له فى تائيته الثانية إهمال السلام عليها ، والضن بالإيماء إليها بالتحية . فإن من أخلاقها التظلم والتشكى . وهى شر ظالمة . فقال :

ولا ترجع بإيماء سلاماً على غيد أشرن مُسلمّاتِ
أولاتُ الظّلم جئن بشر ظلم وقد واجهننا متظلّمات

على أن التظلم من خلق المرأة ، وفى ضعفها ما يدفعها إلى الشكوى فتكثر منها سجايا التظلم .

ولكن ماهو الظلم الفادح الذى جئن به لدى المعرى ؟ هو ولا ريب : (ولادة الإنسان) فهن سر بقائه ! ولهذا يراهن أبو العلاء شراراً ظالمات (جئن بشر ظلم)

وهن عنده فائلات الرأى ، ولو غلبن فى الجدل ، لأنهن « بغير ألباب » فإذا قال هذا عنهن فقد وصمهن بأكثر ممن قال (إنهن ناقصات عقل ودين) لأنه يراهن بلا لب أصلا كما يقول :

يُفَندن الحليم بغير لب وهن وإن غَلبن مفندات

وفى هذا جور ظاهر فى نقده جدل المرأة وتفنيدها لآراء الرجال .

إذ كيف يصح فى القياس أن تكون مفندة إن كانت الغالبة فى الجدال والمالكة للسداد .

وتكاد تكون التائية الأولى مقصورة برمتها على نقد المعرى لخلق المرأة بينما جعل أبو العلاء التائية الثانية مزيجاً من نقده لخلق المرأة وطبيعتها .

أمسك أبو العلاء بأخلاق النساء واحداً واحداً ، فإذا نقد اجتراحهن المآثم قال : (باختيارهن) . وهو فى رأيه الفلسفى يقول بالاختيار وينفى الإجبار فى الأفعال الإرادية فمن قوله فى هذا الذهاب :

وتخالف الأهواء هذا مدع فعلا وذلك دينه الإجبارُ

فهو لم يعتقد بتعطيل إرادة العبد . وإنما بنى كل نقده الاجتماعى على اختيار الأعمال فلو قال بالجبرية لبطل نقده كله وانتقض . وهو إن قال بالإجبار فقد جعله فى الأمور التى لا قبل للإنسان بها ، ولا تكون برأيه وأمره ، كالولادة والموت والحظوظ والأقدار فقال :

ما باختيارى ميلادى ولا هرمى ولا حياتى فهل لى بعد تجبير

وقد قطع الرأى فى الاختيار بقوله :

كيف احتيالك والقضاء مدبر تجنى الأذى وتقول إنك مجبر

فجناية المرأة المآثم إنما هى باختيارها :

تقلدت المآثم باختيار أوانس بالفريد مقلدات

وهن فى معياره إذا عوتبن حَنَسنَ بليدات . وإن عاشرن الرجل الجليد أضعفنه . ولكن حين أوفى بنقد أخلاقهن على الكذب وهو أمُّ خَلاتهن ، ومعدن صفاتهن ، مربه لماماً فأجمل نقده له بأنه العادة التى عرفت بها النساء . لكنه قيد الكذب بطائفة من النساء المتعودات الخنا فأشفق وعدل عن التعميم إلى التخصيص فقال :

مضت لعوائد الكذب الموَرَّى سوادِك بالخنا متعوّداتُ

ولما عرف من أخلاقهن أنهن يأكلن التراب ، وذلك أنه يعرض لهن ما يعرض للحوامل فينقعنه بأكل حجارة من التراب [1] لم يلمهن فى ذلك لأنهن قد شفينه فى بعض رأيه فلقد اشفق على البرايا أن يأكلها التراب وهى دفينة فيه فكان أكل النساء للتراب جزاء له عن البرايا . وقد أخرج نقده لأكلهن التراب مخرج الاستفهام وهو ضرب من سخريته فى النقد فقال :

أجازين التراب عن البرايا بأكل شخوصها المتجسمات

---

(١) أكل التراب خلة معروفة فى بعض نساء الشام الى اليوم

وسنرى مذهبه الساخر وتهكمه اللاذع فى الكتاب الرابع من هذه الرسالة.

ومن نقد أبى العلاء لأخلاق المرأة (طلبها للزينة) و (ميلها للزواج) . وقد خرج بذلك على غرائز الإنسانية . فهل فى الرجال من يميل إلى لبس الأساور والتحلى بالأقراط ، وهل فيهم كثير عازفون عن الزواج عزوف أبى العلاء ؛ حتى يكون من نقائص المرأة حب الزينة وطلب البعولة . وما خلقت الزينة إلا لها ولا كانت البعولة إلا من أجل النساء

لكنه نظر إلى أبعد من ذلك فى الأخلاق ، وهو أن الفتاة إذا طلبت الزواج ولم تجده ، وأرادت الزينة ولم تحصل عليها ، جرها هذان الفاتنان إلى مزالق الضلال فقال فى طلبها البعولة والحلى .

يردن بعولة ويردن حلياً ويلقين الخطوب ملوّمات

ويراهن غير مدافعات عن حوزة الحمى يوم حرب ، ولا يعرفن الإغارة مع المغيرين .

والعجب أن أبا العلاء كان عارفاً بأخبار النسوة اليعربيات اللائى كن يخضن حومات الوغى مع الرجال فى مغازى الجاهلية والإسلام . فلم يشفعن لديه بأخواتهن الخلوف فى الحمى يوم الغزاة . ولو رد إلى عصرنا فى زحام هذه الحرب البارحة التى عمت الدنيا ورأى جيوشاً من النساء فى لباس واحد وكل منهن متكمية ، شاكية السلاح ، عليها عتاد الحرب تجوس خلال الصفوف بين الحديد والنار ؛ لكان له رأى آخر يعدل به عن نقده للمرأة ولا يمضى به مع الشاعر القائل :

كتب الطعن والقتال علينا وعلى الغانيات جرّ الذيول

وهو يتبع بيته السابق بقوله :

ولسن بدافعات يوم حرب ولا فى غارة متغشمات

ثم يتقصى أخلاق النساء بنقده اللاذع حتى يصل إلى صلاتهن ونسكهن فلا يرى فى قيامهن بذلك أماناً من اقترافهن المآثم إذ يقول :

وليس عكوفهن على المصلى أماناً من غوارر محرمات

لكنه فى هذه التائية اللاذعة التى شن فيها على المرأة حرب نقده وأزجى الصفوف تلو الصفوف ، قد فاته أن يذكر (كيد النساء) هذا الخلق الذى تمتاز به المرأة من الرجل . ويكاد يكون قوام المفاسد فى أخلاقها وأظهر سجاياها . فكم جر من مفاتن وأولع من لهيب . وقد صدق فيه قول القرآن الكريم : (إن كيدكن عظيم) .

ولا يصلح عنده دخول الصبى على النساء مذ يكون ابن عشر سنين خوفاً أن يقع فى شراكهن المهلكة فيقول :

إذا بلغ الوليد لديك عشراً فلا يدخل على الحرم الوليد

ألا إن النساء حبال غيّ بهن يضيع العقل التليد

ولعمرى إن فى منع الوليد بعد العشر من الدخول على النساء لتنبيها لغرائزه الغاشمة ، ومدعاة إلى دخوله عليهن . ولم يفت أبا العلاء نقد المرأة فى رسالة الغفران[1] فقد جعل الشيخ ابن القارح يمر فى الجنة بعلقمة الفحل فيستحسن له أبياته فى وصف النساء وإيثارهن الزوج الغنى الشاب وزهادتهن فيه حين يفتقر ويشيخ ، فيذكر قوله عنهن فى الدار الأولى :

إذا شاب رأس المرء أو قل ماله فليس له فى ودهن نصيبُ

يردن ثراء المال حيث وجدنه وشرخُ الشباب عندهن عجيبُ

(٣) طبيعة المرأة

لم يكتف المعرى بنقد خلق المرأة وتفنيده ، وتجريدها من كل خير ونفع فلم ينسب إليها فضيلة من الفضائل ، وإنما تعدى ذلك إلى نقد طبيعتها وخلقها وجمالها . وجد أنها لا تصلح للحياة الاجتماعية فجمالها حرب على الرجل . جنودها الفتنة ، وأعلامها الضلال ، وسلاحها المعلم هو الأساور التى زادت

---

[1] طبعة هندية ص ٩٤

بها وَسامتها غيّاً ، وجمالها فتوناً . لم تقنع بما خلع الله على وجهها من احمرار الوجنات ، فعنّمت البنان بلون الورد

وظاهر ، أنه يريد للمرأة الجمال الطبيعي الذى تَغْنى به عن الجمال المصنوع وترغب فيه عن الحسن المجلوب بالتطرية . ومن هاهنا يمت بصلة فى هذا المعنى إلى نظر المتنبي لجمال المرأة ورأيه فيه [1] فيقول فى تائيته :

فوارسُ فتنة أعلام غيٍ ... لقينك بالأساور معلمات
وسامٌ ما اقتنعن بحسن أصل ... فجئنك بالخضاب موسمات
رأين الورد فى الوجنات حسْنا ... فغادين البنان معنّمات

وهو لا يستطيع أن يفر من النازعة الكبرى المقيمة على نفسه ، وهى اجتواؤه التوليد والنسل . فلذا نجده يقيم ميزان نقده فى بهرة هذه الغريزة الخَلقية فيهوّل على الرجال أرزاء الزواج ومصائب البنين ، ونكبات البنات ، وبؤس التبعات فيعرضهن أيامى بعد موت الأزواج ، ويصف مواليدهن بالعداوة ، ويخيف المجتمع من عار يلحقهن ، ومن عاد يعدو عليهن :

صحبنك فاستفدت بهن ولداً ... أصابك من أذاتك بالسّمات
ومن رزق البنين فغير ناء ... بذلك من نوائب مسقمات
وإن تعط الإناث فأى بؤس ... تبين فى وجوه مقسمات
وقد يفقدن أزواجاً كراماً ... فيا للنسوة المتأيمات
يلدن أعادياً ويكن عاراً ... إذا أمسين فى المتهضّمات

فإذا وضع بين يديك هذا التهويل لخطْبِ المرأة ، وذاك التجسيم لنقائصها ، حرمها بنقده هذا العنيف من حق الحياة ، ولعله استحيا أن يقول بوَأدها ، فقال بدفنها ، فى بيته المشهور وهو خلاصة حكمه عليها ، وعصارة نقده لوجودها .

---

(١) فيما يأتى من هذا الكتاب يبين تأثر المعرى بأبى الطيب ومشابهة الرأى عندهما فى بعض النقد المجتمع .

فدفن والحوادث فاجعات لإحداهن إحدى المكرمات

ولعله احترس بالحوادث الفاجعات . فان تلك هذه الفواجع أخلاق المرأة ومثالبها التي أفرط فى تعدادها ؛ فلن يكون ذلك من قبيل الاحتراس ، وإنما هو جملة حالية يحمل بها على دفن المرأة ويبرر فعلته .

وتساهل فى دفنهن فلم يقيده بالحوادث الفاجعات وإنما جعل لبسهن الأكفان وسكناهن بالقبور خيراً من زينتهن فى الكلل وسكناهن فى الخدور فقال :

ودفن الغانيات لهن أوفى من الكلل المنيعة والخدور

وخشى أن يحسب الناس نقده مصبوباً على المرأة المسلمة وحدها ؛ فقال فى آخر التائية .

وساوِ لديك أتراب النصارى وعيناً من يهود ومسلمات

الفصل الثانى

مثالية المرأة والزواج

(١) كيف يريد المعرّى المرأة

لا جَرَمَ أن مرام النقد طلب الكمال . فهل طلب المعرى الكمال للمرأة بعد أن نقدها . لا أحسب التنقير فى كل شعره يجدى فى إيجاد مذهب له فى بناء المرأة . لأنه يرى فى الحياة هدمها فكيف تريده على بنائها . ولو حصل فى أيدينا كتابه المفقود الذى سماه (تاج الحرة فى عظات النساء)[1] لا ستخلصنا له رأياً فى تكوين أخلاق المرأة . وبحسبنا أن نتخلل نقده للمرأة لنعرف كيف يريدها أن تكون .

لا تثريب عليها عنده أن تكون ناسجة ثوبها بديلا من أن تكون بارية قلمها . وأن تأخذ تلاوة القرآن عن النساء العجائز اللواتى سقطت أسنانهن ، ومالت أشداقهن . وإن كان لابد للنساء من تأديب الرجال ، فليكن شيخهن طاعناً فى السن ، أبيض اللحيين ، مرتعش اليدين فيقول :

فحمل مغازل النسوان أولى ... بهن من اليراع مقلمات
ليأخذن التلاوة عن عجوز ... من اللائى فَغَرْنَ مهتّمات
ولا يُدْنَين من رجل ضرير ... يلقنهن آياً محكمات
سوى من كان مرتعشاً يداه ... ولمسُّهُ من المتشغّمات

وسياق قصده فى الرجل الضرير أن يكون ذلك الشيخ المرتجف ، وقد يعود مناقضاً نفسه فيطلب للمرأة الزواج ، ويرى البعل لها راعياً ، وعليها

---

(١) ذكره ياقوت فى معجم الأدباء ج ٣ ص ١٥٠ . وذكره مرجوليوث فى رسالته عن أسماء الكتب التى الفها المعرى ط باليرمو ص ٢

حافظاً . وقد سلف منه فى ذات التائية أن ضاق صدراً بطلب المرأة للبعولة . فقال بعد ذلك :

وما حفظ الخريدة غير بعل تكون به من المتحرمات

فإذا انتهى من أمره ونهيه فيما يتعلق بتعليم المرأة، ورأى بعد ذلك الحفاظ عليها بالزواج قفى على آثار هذا أموراً قد اعتقد أنها مفسدة للمرأة كذهابها إلى الحمام . فإن بمغداها إليه ورواحها منه ما يعرضها على الأنظار القانصة . ولعله تأثر بأبى الطيب الذى كان يرى هذا الرأى ويفضل النساء البدويات على الحضريات لأنهن لايذهبن إلى الحمام ، ولا يخرجن منه باديات العراقيب الصقيلة متمايدات الأوراك ، فكان من قول المتنبى وهو يعنى هؤلاء البدويات :

ولا خرجن من الحمام ماثلة أوراكهن صقيلات العراقيب

فإذا كان أبو الطيب تنقص الحضريات لاصطناعهن الحسن بالتطرية ، فإن نقد المرأة من وجهة الجمال الطبيعى والجمال المصنوع ، أما أبو العلاء فقد نقد المرأة ومغداها إلى الحمام من وجهة الأخلاق . فجعل ذهابها إليه شراً ، وأشد منه أن تترك وحبلها على غاربها .

وهو يريد المرأة إلى ذلك أن تمضى فى مشيتها هادئة مطمئنة فلا تحرك يديها بأكمامها ولا تتطيب فيعبق عطرها فى الدروب . وينبغى لها أن تصلى فى بيتها فلا تزور المسجد فإن الخيبة فى ذهابها إليه وأتمامها فيه ، ثم يعود إلى أعنف من ذلك فيحملها المعزل حتى يأتيها وفد الحمام .

شر على المرأة من حمامها إرسالك الفاضل من زمامها
ومشيها تضرب فى أكمامها تفوح ريا الطيب من أمامها
زائرة المسجد فى إلمامها تأثم والخيبة فى اتمامها
وحملها المعزل فى إتمامها أوفى بما تعقد من زمامها

هذا دأب المعرى فى كل سانحة تكلم فيها عن المرأة . أرادها كذلك إصلاحا لحالها فى زمنه وإرضاء لرأيه . وهو يريدها عقيما لمن يبتغيها قرينة فيقول :

إذا شئت يوماً وصلة بقرينة فخير نساء العالمين عقيمها

وهو إن رضى بالزواج وسامح فعلى شرط أن تطيع المرأة زوجها ولن يمحو معصيتها للزوج حَجُّها واعتمارها ، وقد يعود فيأمر المرأة بنبذ العطور فى نشره كما نهاها فى شعره فيقول :

(لا أحمد نساء عصين الأزواج وقعدن على ظهور الركائب حَوَاجّ البيت ومعتمرات ، فاتّقِينَ الله فى نفوسكن ، وإذا غدوتن للحاجة فغير عطرات)[1] .

وقد يتقصى المرأة حتى فى عبادتها فلا يريدها فيها رافعة الصوت بالدعاء لله فيوصيها بإخفائه فيقول (وعليكِ بالهينمة فى ذكر الله) .

٣) نظرية النسل بين مالتوس والهرى

فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر للميلاد ظهر العالم الإنكليزى الاقتصادى روبير مالتوس[2] بنظريته فى النسل والمواليد فأثار دهشة العالم . وقد شبه مالتوس المجتمع الإنسانى بمأدبة جلس على أرائكها أناس أخذ كل منهم حولها مكانه . أقبلوا على الطعام ، فبين أيديهم شِبَعٌ وريٌّ ، ولهم من الطعام والشراب ما يشتهون ويسيغون . وما لبثوا أن أتاهم جائع فأشفقوا عليه ورثوا لحاله ، فأفسحوا له بينهم مكاناً . فأقبل معهم على الطعام وما كادوا يفعلون ، حتى جاء رجل آخر ثم تبعه ثالث فرابع ، وقفّى على آثارهم آخرون فشاهد هؤلاء الواغلون وزاحموا بالمناكب حتى احتلوا محلا لدى المائدة . ثم دَمَرَ فقراء ومعدمون بعدهم فشقوا الصفوف إلى الغذاء الذى دب إليه النفاد . وانقلب عن المائدة ناس فجاء بعدهم ناس زادوا عليهم عدداً ، وكانوا دونهم مالا ونسباً . وكان بجانب المائدة (مالتوس) هذا الاقتصادى الجبار

---

(١) الفصول والغايات ، الطبعة الأولى ١٩٣٨ ص ١١٧

(٢) ولد سنة ١٧٦٦ وتوفى ١٨٣٤

يفكر فيما سيؤول إليه حال المأدبة ، فكان منتوج حسابه أنْ سيأتى وقت عليها يقتتل الآكلون فيه على كِسرة من الخبز .

لقد ضرب مالتوس هذا المثل تبياناً لحال العالم عنده ، إذ رأى أن المواليد فى عمر الدهر ستزيد على المطّـرَد ، ويعم فيها العدد ، وعندئذ يكون الويل والثبور ، فإن الإنسان يفقد يومئذ قوت يومه فيسود المجتمع الفقر ، ويطفح فيه الشقاء والبأساء ، وتدب المجاعات فى الجماعات ، وتكثر الجنايات ، وتندلع الثورات .

فلكى تعيش الإنسانية فى أمن ورغد ينبغى وقف التيار البشرى الجارف الذى نسميه (المواليد) . هذا التيار الذى يقذف بالإنسانية إلى دنيا الشقاوة والمصائب . والعلاج الحاسم واحد من الأمرين المروّعين : إما (تحديد النسل) أو (تقليل عدد البشر بالحروب) وقد اتخذ مالتوس الدليل من زمنه أواخر القرن الثامن عشر فقال[1] : « إن الإنسان يقوم فى وقت واحد بأمرين هما قوام حياته وبقاء جنسه ، فهو (منتج للأشياء) و (الأولاد) . وهو ينتج الأشياء بجهد وتعب ، ويأتى بالأولاد بسرور ولذة ، فهو مجبول إذن على زيادة نسله أكثر من زيادة منتوجه . فينبغى السعى لدرء هذا الخطر وما دواؤه إلا (تقليل النسل) .

ولم يكد مالتوس ينشر فى الناس كتابه عن نظريته فى تحديد النسل وإفناء ما ربا على المجتمع ابتغاء الرفاهية للبشر ؛ حتى هبّ فى وجهه معاصروه من (علماء الحياة) و (جهابذة الاقتصاد) فسفهوا رأيه وعدوه مخالفاً للإنسانية ، ولم يتريثوا فى أمره ، بل أوغروا عليه صدور الناس . وحمله أبوه على هجر نظريته ورماه بالعقوق ، ففارقه وبقى على رأيه مقيماً حفيظاً . فتنكر له المجتمع إلا قليلا من العلماء الذين تريثوا فى أمر رأيه حتى قبلوا وجوه الصواب فيه ؛ إذ قاسوا البشر عليه فى ماضيهم الغابر وحاضرهم ويومهم الآتى ، فمضوا على

(١) الموسوعة الفرنسية الكبرى للشيخ برتيلو ورفاقه الجزء ٢٢ ص ١٠٧٨

غراره وكان منهم (داروين) ، وانبرت الأقلام على صفحات الصحف بالطعن على (مالتوس) أو الذب عنه ، وجر ذلك إلى سجن بعض المهاترين من أشياع الفريقين[1] .

وجاز مذهب مالتوس حدود بلاده إلى فرانسة فتلقفته معجبة به راضية عنه كل الرضا . وأقبلت الأسر الفرنسية على اعتناقه فسرى فيها تحديد النسل وكان من شغف المرأة الفرنسية المترفة أن اتخذته وسيلة إلى دوام جمالها وإطالة الأمد على صباها ببعدها عن الولادة ، ورضى به الرجال المتزوجون حرصاً على الثروة من أن يأتى عليها التوزيع بالميراث ، لأن مضيعتها بكثرة الأولاد الوارثين . وأحبها الأزواج الفقراء لخوفهم أن يجرُّوا البؤس على أبنائهم فى الحياة . فأعرضت الأمة الفرنسية باختيارها ؛ عن كثرة المواليد ونقص عدد نسماتها نقصاً مروعا وجر هذا المذهب عليها تلك الجملة التاريخية التى فاه بها الماريشال (بيتان) بعد هزيمة فرانسة وهجمة الجرمان عليها فى عصرنا هذا ، فبكى على مصرع قومه وهو يقول : (. . . وقلة فى المواليد) .

تسربت هـــذه النظرية إلى رؤوس علماء الاجتماع فى أوربة فقال غُلاتهم بتنقية الأنسال ، وشجعهم هذا الرأى على المطالبة بإفناء ذوى العاهات الزمنى ومن لا يرجى لهم طيب صحة وعافية ، ومن يحملون فى دمائهم الأدواء الوبيلة لأنهم شقاء البشرية وشقاء أنفسهم معاً .

وأقبل العصر الحاضر وإذا (المالتوسية) تحتل مقاماً جليلا فى علم الاجتماع الحديث لـكنه مقام محفوف بالمناقشة والنقد والشرح والدحض .

* * *

قلت أكان (مالتوس) يعرف العربيـة ، أو هل سمع بشعر المعرى أو ترجم له ؟ وهل أجال الطرف ساعات فى اللزوميات ، فقرأ مثل هذين البيتين :

لو هب سكان التراب من الكرى ... أعيا المحلُّ على المقيم الساكن
لغدَوا وقد ملأ البسيطة بعضهم ... ورأيت أكثرهم بغير أماكن

(١) الموضع السابق ص ١٠٧٩

وهل استل نظريته من أبى العلاء — مع شيء من التعديل — من نقده للمجتمع الذى يرمى بأنساله كأنها الصيّب أو السيل الجارف .

إن صح اطلاع مالتوس على نظرية المعرى فى النسل ، كان أبو العلاء أستاذه فى (علم الحياة) وإمامه فى (النقد الاجتماعى) . وإن يكن مالتوس قد ابتدع المذهب أو ارتجله ، فإن شيخ المعرة قد سبقه إلى أوغل من ذلك وأقسى .

يرى أبو العلاء أن الحياة قد عمتها المصائب منذ عهد آدم وأن الإنسان على الأرض قد حمل فى العيش أعباء الفقر والمرض والهم والبلوى ، وأثقال العدوان وآلام القتال ، حتى فسد الكون من أطرافه ، وأخذ به الضلال من أصوله . فباتت الإنسانيه فى حمأته شقية معذبة فلا ينقذها إلا الموت العميم ولا ينجيها سوى قطع المواليد .

وقد هيّأ له نقده للمجتمع أن إبادته خير من إصلاحه فأبدع فى دهر الجماعات هذا المذهب بدعة فتك . وأخذ فى عهد عزلته عند نظم اللزوميات يحشوها فى كثير من المناسبات بهذا الرأى الخطر الذى يهدم العالم من أس أركانه ، ويأتى على حضارته وعمرانه فقال :

لو أن كل نفوس الناس رائية كرأى نفسى تناءت عن خزاياها
وعطلوا هذه الدنيا فما ولدوا ولا اقتنوا واستراحوا من رزاياها

ولو أننا أبدلنا كلمة (التعطيل) بكلمة (التقليل) لزعمنا تناسخ الأفكار ، وقلنا بالحيلولة بين مالتوس والمعرى على الرغم من زمن قد فصل بينهما باثنين وعشرين وثمانمائة عام .

نقد أبو العلاء المجتمع بنظريته فى النسل كما نقده مالتوس . فالفقر فى نظر المعرى والحرمان والشقاوة هى الأسباب التى حملته على هذا الرأى والجهر به وقد عاين فى الشام الإدقاع وشاهد المتربة فى المعرة . وكان يقول : « ولم أكن ذا ثروة فكيف الحداء بغير بعير »[1] وهالته القلاقل والفتن واضطراب

(١) رسالته الى أبى نصر الفلاحى طبع بيروت ص ٩٧ وأكسفورد ص ٢٤

المجتمع فى عهـــده . وتلك علامات التفكك والانحلال . فأمسك بالعلة الاجتماعية الكبرى من منابعها وأقبل على استئصالها من صليبتها فقال (بنفى النسل) وعنف كل ناسل ، وزين للرجال البعد عن الزواج ، فأراهم جناية آدم على البشرية بمثل قوله :

أكان أبوكم آدم بالذى أتى نجيباً فترجون النجابة بالنسل

وأكثر من ذكر هذه الدعوة فى لزومياته ، وكان يعلل أن الإنسان قد وطن نفسه على المكاره بإتيانه النسل ، ولو كان حازماً لما نسل فقال :

كل على مكروهه مبسل وحازم الأقوام لا ينسل

وكان يدعو الناس إلى شغل جدى فيه نفع للمجتمع ، وينهاهم عن اشتغالهم بالزواج والتوليد . وكم أطال القول فى أن الأبَ يجنى الشر على ولده بجلبه إلى الدنيا فقال :

فدونك شغلا ليس هذا لعله يعود بنفع لا كشغلك بالنسل

أبوك جنى شراً عليك وإنما هو الضب إذ يسدى العقوق إلى الحسل

فعد الأب بجلبه ولده إلى جحيم الدنيا إنما يجنى أذية فكأنه الضب الذى أكل أولاده فأسدى إليهم العقوق بديلا من الحنان . وقد يرى أن الأب لا يزال جانياً على ولده ولو كان ولده ملكا أو خطيباً :

على الوُلدِ يجنى والد ولو انهم ملوك على أمصارهم خطباء

وكانت لأبى العلاء رجعات إلى التوسط فى الرأى والتخفيف من النقد العنيف ولعله حين وقرَ فى ذهنه أن المجتمع سيعرض عن دعوته المبيدة فى وقف النسل وقطعه . وسيسفّه رأيه فى نقده للزواج والمرأة ، خفف من هجمته فأقر بأنه لابد للمرأة من زواج ، وأن الزواج لا بدّ فيه من النسل ، فغضّ من غلواء نقده بعضَ أمره ودعا إلى التزويج بالمرأة العقيم ، ورضىَ بالنسل النافع ، ثم لم يلبث أن عاد إلى غلوه واستقصائه فى نظريته فقال :

خير النساء اللواتى لا يلدن لكم فإن ولدن فخير النسل ما نفعا

وأكثر النسل يشقى الوالدان به فليته كان عن آبائه دفعا

وقد جرّ عليه شغفه بأبي الطيب أن أخذ بآرائه ، أفلم يسبقه المتنبي إلى سرد الأهوال الاجتماعية ونقدها فى شعره ، فكان سبّاقاً إلى خاطرة النسل والإبادة الجنسية وكأنه ندم على نسله لابنه محمد فكان يقول :

وما الدهر أهل أن تؤمل عنده حياة وأن يشتاق فيه إلى النسل

وكان المعرى قد توقع لصرخته هذه أن تمضى مع الريح ، فترك الناس فى نسلهم أوفى عقمهم . وقد استوى عنده النَّجل الأريب والنسل الخبيث فقال :

أنَسْلٌ أو اعقم فالتوحد راحة سيان نجلك والخبيث الناسلُ

أما هو فعاد على نفسه يأخذها برأيه حين لم يستطع أن يأخذ به أحداً فرغب عن النسل ولو كان بنوه أفضل أهل عصره فقال :

لو ان بنيَّ أفضلُ أهل عصرى لما آثرت أن أحظى بنَسْل

وقطع ما بينه وبين آدم الأسباب :

تواصل حبل النسل ما بين آدم وبينى ولم يوصل بلامى باءُ

فلئن كان لكل مذهب غلاة ومتوسطون فإن المذهب الاجتماعى لأعداء النسل متجاذب بين مالتوس وأبى العلاء . هذا من غلاته وذاك من المتوسطين فيه . وإنى جدت بينهما مطابقة تامة فى رأى واحد يكاد يكون هو قوام (النظرية المالتوسية) وهو قول أبى العلاء :

إذا (كثر الناس) شاع الفساد كما فسد القول لما كَثُرْ[1]

قال أبو العلاء بقطع النسل استئصالا لفساد العالم . والفساد حسب قصده قد عم أخلاق المجتمع . أما مالتوس فقد صب قصده أولا على الحياة الاقتصادية ، ثم على فساد الأخلاق واضطراب الجماعات بسبب كثرة الأنسال . فاستوى والمعرى على صعيد واحد فى (كثرة الناس) وما (كثرة الناس) سوى (نظرية السكان) التى جاء بها مالتوس .

فأنا أخلص من هذا البحث إلى التقسيم الآتى :

---

(١) اللزوميات ط . المحروسة ج ١ ص ٤٢٨

ا — أبو العلاء بنى نقده للنسل على الأخلاق والمصائب الطبيعية . فالبؤس والحرمان وفساد الخلق والفاقات وكل ما يمكن توقعه على الإنسان من الأدواء والمصائب والحروب حملت المعرى على القول بقطع النسل . وعنده أن الإنسان مجبول بالبأساء والضراء مذ دبت فيه الروح وهو جنين لا منذ زالت عن رأسه مشيمة الأجنة عند مولده فقال :

ومابرح الإنسان فى البؤس مذجرت به الروح لامذ زال عن رأسه الغرس

ب) أبو العلاء يرى « كمالتوس » حذوك الشىء بالشىء أن كثرة السكان تشيع المفاسد الاجتماعية .

ح) مالتوس لم يسبق المعرى إلى إيجاد هذه (النظرية البشرية) وإنما خفف من غلوائها فقال بتحديد النسل فتوسط فى نظريته بين وجود النسل وعدمه .

ء) أبو العلاء فى قضية النسل والسكان ذو (نظرية أخلاقية اجتماعية) .

هـ) مالتوس فى قضية النسل والسكان ذو (نظرية اقتصادية اجتماعية) .

(٣) الزواج عند المعرى

الزواج ضرورة إنسانية . بل هو أكبر رابطة اجتماعية وأكثرها دواما . وقد كان من طبيعة شكله أن يتحمل فيه المرء واجبات وتبعات قد لا تحصى . حملت عليه الضرورة ، لأن الغرائز المركبة فى البشر تؤول إليه وتحمل عليه . ومضى فى سبيله الإنسان منذ خلق على البسيطة مرتبطاً بمواثيقه التى عززتها الأديان وحمتها الشرائع .

لم تدع إليه الإنسانية لمطالب السرور فحسب ، وإنما رُكّبت فيه هذه الغرائز وسيلة لبقاء النوع الإنسانى . وقطافاً لثمرة المواليد .

وأهل الحصافة يتلاقون فى رأى حول الزواج ، ويختلفون فى آخر . قالوا بتغيير نظمه ، ونقدوا طرقه ، وأحبوا له المثالية والكمال ، ولكن لم

يقل واحد منهم بنفيه وإلغائه كما قال أبو العلاء . لأن بالغائه إفساد الحياة ، واختلال الكون الاجتماعي . وليس مقصود أبي العلاء في إلغاء الزواج هدم الأسرة وإبطال (العائلة) ، ولو كان ذلك رأيه لكان من غلاة أهل الفوضى الاجتماعية[1] الذين عرفوا في دهرنا هذا وهم من ألد الخصام للصلات الإنسانية المرضية ، ولكن أبا العلاء يرمي من أبطال الزواج إلى نفي الصلة بالمرأة أصلا ، فصميم نقده في قلب الزواج درء للأولاد ؛ لأن الزواج وسيلة إيجادهم في الدنيا . فهو ينفي السبب من أجل المسبب . وجه نقده بادىء الرأي ، على مطل الزواج . ففجع الأوانس وهن فرحات ، عليهن أزهى الثياب في يوم العرس فقال :

إن الأوانس أن تزار قبورها خير لها من أن يقال عرائس

ونصح الأم بأن تشغل بنتها بالمغازل والمناسج بدلا من أن تزينها بالأساور والخلاخيل لتروح إلى العرس فقال :

ولا تلبسي الحجلين بنتك والبري لتشهد عرساً وأشغليها بعرناس

قال هذا للمرأة العروس ومشاهداتها ، ولم ينس الرجل وهو مقبل على زوجه ليلة عرسه ممتلىء القلب بالأمل يريد السعادة الزوجية ، فصاح به منذراً :

عروسك أفعى فهب قربها وخف من سليلك فهو الحنش

أشبع المعري مراد نفسه من نقد خلق المرأة وتجريح طبيعتها . ومن القول بتعطيل الوجود بالغاء النسل والتوليد . وبقي عليه شوط واحد في حلقة نقده التي ضربها نطاقاً على الغريزة الإنسانية . وهذا الشوط هو نقده للزواج .

رأى الزواج قضية مقضية وأمراً محتوماً . فحاول نقده من وجوهه (العملية) فباشر نقد المظالم الاجتماعية التي يسببها ضرب من ضروب الزواج . وهو اقتران الرجل المسن بالشابة . فكان يرى أن اللعنة تحل بالشيخ حين تزف إليه الزود الحسناء . وكأن المعري يسن للزواج قانوناً ، فينص فيه على

---

(١) الفوضويون Les anarchistes .

اقتران ابن الأربعين بالنصف من النساء أو الكهلة المجربة وابن الستين بالعجوز فيقول :

إذا ما ابن ستين ضم الكعاب — إليه فقد حلت البهله
فلا يتزوج أخو الأربعين — إلا مجربة كهله
رأى الشيب فى عارضيه المسن — فنعم القريب له الشهلة

وينقد أبو العلاء الفساد الاجتماعى الذى ينشأ عن اقتران الشيخ بالشابة فيعلل سبب الفساد فى أدق ناحية أخلاقية فى حياة الزوجين الاجتماعية . ولكم جر هذا الضرب من الزواج انحلالا فى كيان الأسرة . فما تزوج شيخ هرم ، كما يقول أبو العلاء ، بصبية إلا كان كالجمل الساقط فى وحل وقد صعب عليه المسير . فعرسه فى تعب مقيم ملت عشرته الجافية فليست تتزين له ، وباتت ترتقب زواله وارتحاله . وتعلل نفسها بشاب تزف إليه بعده ، وهى تعلم أن زواجها بالشاب هو الملال . فيصف أبو العلاء هذا الشقاء الزوجى بقوله :

تزوّج الشيخ فألفيته كأنه مثقل إبل وحل
وعرسه فى تعب دائم لا تخضب الكف ولا تكتحل
ملت وإنْ أحسن أيامهُ تقول فى النفس متى يرتحل
لو مات لاستبدلتُ منه فتى إنى أراه محرماً لا يحل

وكانت هواجس أبى العلاء فى شعره ، مشبهة لخواطره فى نثره فطرح هذا الانتقاد الاجتماعى فى مطارح (رسالة الغفران) فمن مجاذباته لفنون الرأى مع ابن القارح ، أن ابن القارح (يريد التزويج) . وأبو العلاء يعلم أن صاحبه الحلبى قد أوفى على الستين ، فعلام زواجه . فجعل المعرى ، بما أوتيه من فن فى النقد الساخر يدلى إلى على بن منصور بسفاهة الزواج بعد هذه السن . ثم يذكر من حبذ هذا الزواج من القالة والشعراء ، ومن مدح الزواج بالمسنات والعجائز ، حتى ضرب المثل بزواج النبى صلى الله عليه وسلم بخديجة . وانتهى من

مباسطته هذه إلى بث فكرة العزلة فى نفس ابن القارح وتحبيذها إليه فقال[١]

(وقد تحدث بعض طلاب الأدب أنه ، أدام الله تزيين المحافل بحضوره ، ذكر التزويج . فسرنى ذلك فسرنى ذلك . وهو يعرف ، إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب) .

وكأنه يصف لابن القارح الزواج بامرأة نصف ليدفعه عن خطبة الشابة فيتخذ لإقناعه آية القرآن الكريم فيقول ، (ولكن النصف ممن يوصف « لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون) .

ثم يأخذ فى التهكم بابن القارح وقد هم بالزواج من كهلة أو عجوز فيجعله تتسابق إلى خطبته العجائز والكهلات فيقول :

(ولو نشط لهذه المأربة لتنافست فيه العجُز والمكتهلات ، لأن العاقلة ذات الإحصاف[٢] تجنبُ إلى معاشرة الإنصاف) ثم يتبع عنه (فليس بأول من طلب نجوزا ، فتزوج على السن عجوزا كما قال — الأول — :

إذا ما أعرض الفتيات عنى ... فمن لى أن تساعفنى عجوز

كأن مجامع اللحيَين منها ... إذا حسرت عن العرنين كوز

وقفى أبو العلاء على آثار هذا التهكم الظاهر بشواهد من الشعر والخبر على امتداح الزواج بالعجوز الحيزبون . فإذا أفرغ فى هذا السباق جعبة سخريته للأديب الحلبى ؛ لمزه لمزة أخيرة حفية المطعن بادية المأرب من أنه كان له فى مصر جوارٍ عديدات ، أفما كفينه ؟ فقال[٣] :

(ولا أشك أنه قد استخدم فى مصر أصناف جوار ، هنّ للمآرب موَار)

وخلص من هذه المباسطة إلى بث فكرة العزلة فى نفس ابن القارح بقوله:

(وأن يخدم نفسه الوحيد خير من أن يلج بيته العبيد[٤])

---

(١) رسالة الغفران طبعة هندية بمصر سنة ١٩٠٣ ص ١٧١

(٢) وردت فى كل النسخ التى رأيتها بالخاء والصواب بالحاء من أحصف عقله كحصف

(٣) رسالة الغفران ص ١٧٢

(٤) ص ١٧٣ طبعة هندية .

لم يقل أبو العلاء بتحديد النسل ، لأنه كان يريد نفى الأصل . فكيف يقبل بوجود الفرع . لكنه تسامح فى الزواج . فعد المرأة العقيم أصلح زوج . وكيف دار الأمر ، فلئن فاته أن يقول بتحديد النسل فلم يفته أن يقول (بتحديد الزوجات) . فنقد بسخرية حالة من يتزوج ثلاثاً ثم أبان قلق الحياة الزوجية وتسلل الريبة إلى نفس الزوج إذا مالت إحدى أزواجه إلى صاحب ، وما يقع فيه زوج الثنتين من حيدة عن الحق والعدل بين زوجيه فقال :

تزوج بعد واحدة ثلاثاً ... وقالى لعرسه يكفيك ربعى
فيرضيها إذا قنعت بقوت ... ويرجمها إذا مالت لتبع
ومن جمع اثنتين فما توخى ... سبيل الحق فى خُمس وربع

وصرح بتحديد الزوجات (بواحدة) حين عد الزوجات كالأعداء للزوج فقال :

إذا كنت ذا ثنتين فاعد محارباً ... عدوين واحذر من ثلاث ضرائر
وإن كنت غراً بالزمان وأهله ... فتكفيك إحدى الآنسات الحرائر

ومن كان ذا (نظرية) كأبى العلاء ، أعادها فى الذكر وأعقب شرحها فى كل سانحة من قوله . فهو إذ يرى نظام الزوجية فاسداً ، يرى منتوجه أعم فساداً . إنه ليبلغ بنقده أصل زواج الإنسان فيصعد إلى آدم وحواء قائلا فى زواجهما :

كأن حواء التى زوجها ... آدم لم تلقح بشخص أريب

الفصل الثالث

المعرى فى ميزان (فرويد) [1]

لا تثريب على علم النفس فى أن يتناول أبا العلاء ، فيمضى فى أغوار نفسه يجس أنباضها ، ويغوص إلى أعماقها . وما كان لأبى العلاء مهما غلا فى التقية وآثر البعد على المستطلعين أن يبيت فى نجوة من مسابر عالم حديث وضع كواشفه على النفوس فحلل ذراتها ، ومشى بمبضعه على الأرواح فشرح مواضع الداء فيها .

ذلك العالم هو (فرويد) الذى يتخلص مذهبه فى علم النفس الروحى بأن الغريزة هى علة الاضطرابات العصبية ، وأن ما يخزنه العقل الباطنى فى جميع مراحل العمر هو الذى يؤثر فى الإنسان ويهيمن عليه . وهو يرى أن العقل الباطنى إنما يمثل رغبات النفس الحقيقية. أما العقل الواعى فيمثل رغباتها العرفية التى أقرها المجتمع وارتضتها التقاليد . وإن ذلك الصراع الذى ينشأ بين رغبات العقل الباطن ورغبات العقل الظاهر هو الذى يسبب القلق الروحى فاذا ما نجحنا فى إطلاق الغرائز المكبوتة من عقالها ، فقد بلغنا المأمول فى توفير الطمأنينة المعنوية للنفوس الطامحة الظمأى .

فهل على نور هذا المذهب الروحى أستطيع أن أحلل نفس أبى العلاء المعرى بمذهبه فى المرأة والغريزة الجنسية الناسلة والزواج .

يقول (فرويد) [2]

(وإن استولى على الانسان كرب فينبغى أن يكون ثمة سبب باعث عليه وما من كرب لزم أمراً فعم أموره إلا كان منوطاً إلى حد عظيم بأسباب

---

(١) سيغموند فرويد عالم نمساوى ولد سنة ١٨٥٦ وتوفى سنة ١٩٤٠ . انبسطت شهرته بمذهب (التحليل النفسى) وغدا فيه فيلسوفا عالميا .

(٢) المدخل الى علم النفس التحليلى تأليف فرويد طبعة پايو بباريس سنة ١٩٢٦ ص ٤٢٩

الغريزة الجنسية . ولقد تحور فى نفس المرء بواعث جنسية لا يرتوى ظمؤها فتغور فى أعماق نفسه ويطفو مكانها كرب عميم).

ويقول شراح مذهب فرويد[١] : (إن الصراع القائم بين الطبيعة العادية والغريزة الجنسية يؤدى إلى واحد من اثنين . إما ظفر بالذات ، أو انتصار الرغبات . فإذا كتب النصر للأمر الثانى تلبس صاحبه بثياب سوداوى المزاج ولقد يبدو هذا الإنسان بمظهرين : واحد سفلى واطىء ، وآخر عال رفيع . وأهل العلو والرفعة يتخذون الهيام بالآداب واعتناق الزهد والهروب من الناس خلة لهم وديدناً) .

ويقول فرويد فى كتاب له آخر[٢] (ينبغى لنا أن نعتبر كبت الغريزة الجنسية باعثاً من بواعث العلو النفسى) وهو فى فاتحة كتابه هذا يقول[٣] (كما يطلب الجسم الطعام فيحس (بالجوع) كذلك تطلب النفس الغريزة الجنسية وتشعر بالجوع فيها) .

وقد هجم النقاد والفلاسفة على فرويد بالأقلام الحداد وبصرخات الخناجر ليهدموا مذهبه ويفندوه . فعده دعوة إلى تشريح الأخلاق والكشف عن خبايا النفوس وهتك ما اصطلح عليه الناس من العادات وما قدسوه من الفضائل . فأجابهم بما أفحم حججهم . وكان يقول إنه لم يك مبتدعا لهذا المذهب وإنما هو مطبق له وشارح لمعضلاته ، فقال مدافعا عن نفسه[٤] .

(ليس عنا ببعيد ذلك الزمن الذى أظهر فيه (شوبنهوير) للناس أن كل حميتهم فى الحياة منتوج الغريزة الجنسية) .

فهل على من حرج بعد أن عرضت مذهب فرويد فى الغريزة الجنسية

---

(١) معلمة القرن العشرين بالفرنسية الجزء الثانى ص ٦٣٨

(٢) ثلاث تجارب فى نظرية الغريزة الجنسية ، الطبعة الثانية والثلاثون . طبعة فايمار بباريس سنة ١٩٣٢ ص ١٧٧

(٣) ص ١٩

(٤) ص ١٥ من الكتاب السابق .

هذا العرض أن أتساءل :

ما هى نفس أبى العلاء فى هذا المذهب ؟

حين شب المعرى وأدرك الرجال لم يكن متشائماً فى حياته . فقد كان فى معرة النعمان يضرب فيما يضرب فيه الفتيان والرجال المرحون من لهو لطيف يحبب إلى النفوس ، فكان (يلعب الشطرنج والنرد ويدخل فى كل فن من الجد والهزل)[1] .

وكان يقول فى مرح هذه الفتوة وهجمة ذلك الشباب :

رب ليل كأنه الصبح فى الحسن وإن كان أسود الطيلسانِ
قد ركضنا فيه إلى اللهو لما وقف النجم وقفة الحيرانِ

فهرب النوم عنه فى ليلة كانت كالعروس فقال :

ليلتى هذه عروس من الزنج — عليها قلائد من جمانِ
هرب النوم عن جفونى فيها هرب الأمن عن فؤاد الجبان

وكان يعرف أوصاف الهوى فيحسنها بقوله :

وكأن الهلال يهوى الثريا فهما للوداع معتنقان

إلى هذه الفترة التى كان أبو العلاء يقول فيها مثل هذا الشعر ويلعب بالشطرنج والنرد كانت نفسه منطلقة كأنفس الناس تدخل فى كل فن من الهزل أو تخرج منه إلى الجد . يسهر صاحبها فى لهو وأنس ويجيد أوصاف الهوى ويتقن تصوير الهائمين فسهيل أحمر كوجنة الحبيب وخافق كقلب المحب :

وسهيل كوجنة الحب فى اللون وقلب المحب فى الخفقان .

ولكن نفس أبى العلاء بعد هذه الفترة قد تغيرت وكأنها بدلت نفسا غيرها . فينبغى أن تكون ثمة أمور فى حياته لها صلة بتغير نزعته وانقلاب طبعه . وتلقاء ذلك سألت نفسى الأسئلة الآتية فيما يخص نزعته فى الغريزة الجنسية :

(١) أكانت فى حياة أبى العلاء (امرأة) على نحو ما تكون النساء فى حياة العبقريين ؟

---

(١) نكت الهميان للصفدى ص ١٠٣

(٢) أكان يميل إلى النساء ويحسّ بهذه الغريزة الحيوية التى يحس بها غيرهُ من الرجال .

(٣) هل كانت نقمته على المرأة ونقده العنيف لها وحى انتقام منها .

* * *

إن المسلم بوجوده فى الطبائع هو أن أبا العلاء لم يكن محروما غريزة الميل إلى المرأة . فقد أثر عنه غزل فى شعره الأول الذى قاله فى(سقط الزند) « وهو شعره فى الدهر الأول» [١] بديار الشام وفى أيام الشبيبة . وفيه غزل بالمرأة رقيق وهو قليل . أفليس يقول فى هذا الشعر وفى هذه السن إنه ذكر (أمامة) فى أرض مضيعة حين ضل بهم الدليل ، ونزل يستاف التراب ليعلم أية يسلك ، وكان المعرى يحمل فى هواها عنتاً وشجواً ، فيقول[٢] :

ولقد ذكرتك يا (أمامة) بعد ما نزل الدليل إلى التراب يسوفُـهُ
فنسيت ما كلفتنيه وطالمـا كلفتنى ما ضرنى تـكليفه
وهواك عندى كالغناء لأنه حسن لدىّ ثقيله وخفيفه

فمن (أمامةُ) التى ذكرها فى هذه الأبيات من شعر شبابه ، وكانت تحمله فى الهوى ما أتعبه وأضره . وكان من دماثة حبه مصابراً فيه مستحسناً له يجده كالغناء ، مطرباً فى لحونه الثقيلة ، ولحونه الخفيفة .

ومن يدرى ؟ فان هذه الأبيات تدلنى على حادث حب كان لأبى العلاء مع (أمامة) هذه . وأن أمامة كانت تتجنى عليه . وطال منها تكليف أبى العلاء فى الحب التعب والمشقة .

ثم ، أخانته تلك المرأة فلم ترغب فيه وفاتت حبه فما عادت تقبل عليه . فإن يك شىء من هذا فى حياته فعلام لم يذكره فى شعره ويعالن به الناس ؟ .

---

(١) معجم ياقوت الروى ج ٣ ص ١٥٤

(٢) سقط الزند طبعه المعارف مصر ص ٣٧

والظاهر أنه آثر كتمان هذا الأمر فى سيرة حياته . وإنى لأعلل هذا بتربيته التى لقيها من أهله وهو صغير ويافع .

فأبو العلاء لقى من أبيه وأهليه منذ طفولته تهذيباً وتقويماً . ونشأ فى بيت قضاء وفقه وأدب وعلم . فكان بحكم هذه النشأة وتلك التربية مباعداً عن حديث الهوى الصريح ، وعاقبة ذلك الحب العنيف الذى تحمله من (أمامة) .

وينبغى أن نقف عنـــد أبيات غزله وقفة استنباط واستقراء ، ونحن مكترثون بها على قلتها كما وقف النقاد بأبيات قلائل لأبى العلاء حاولوا بها اكتناه عقيدته التى بقيت لديهم إلى اليوم موضع تحقيق . على أن بقية آثار أبى العلاء لم تصل إلى أيدينا ولعلها لا تخلو من إشارة إلى عهود صباه يستطيع المطلع عليها أن يلقى نوراً جديداً على ذلك الغزل الذى مر به شعره فى فترة من فترات حياته . ولعل لتلك المرأة أثراً فى حفز أبى العلاء إلى السمو الروحى والمجد العقلى . فقد اتفق علماء النفس على أن من الآلام والخيبات حوافز للعبقريين . ونجد الشواهد على هذا عند كثير من أفذاذ العقول وأهل البيان .

أما مايتعلق بغريزة أبى العلاء الجنسية فالمفروض أنه كان إنساناً كامل الحواس ، ماعدا النظر ، سليم النزعات الجسمية . وإذا كان التصريح بذلك يتحاشاه الجهلاء فضلا عن العلماء أمثال المعرى فإننا لا نرى له شعراً يعبر فيه عن نوازعه فى الغريزة الجنسية . ويدلنى أنه لم يكن يجهل هذه النوازع تصويره لها فى أفعال غيره من الذين ينقدهم ويحلل أخلاقهم وميول أبدانهم ويصف شهواتهم وأهواءهم الغريزية .

فمن نصائحه فى آداب الجيران يوصى المرء بغض النظر عن جارته ثم يذكر (جنى الشباب) و (سوء الغريزة) فيقول[1] .

ولا تبغين لحة فى الحياة — إلى جارتيك إذا كنتا
فلولا مخافة جن الشباب — وسوء الغريزة ما جئتنا

(١) اللزوميات ، الطبعة الثانية التجارية بمصر الجزء الأول ١٦٩ .

فأبو العلاء كائن الغريزة ومن هاهنا يستطيع (المذهب الفرويدى) أن يحلل نفس أبى العلاء من وجهة الغريزة فيسأل :

أين غريزته الجنسية ؟ فيجيب نفسه على سؤاله هذا بأن غريزة أبى العلاء استسرت ثم (كُبِتَتْ) .

كذلك كبتت غريزة المعرى فتغلغلت سمومها خلالَ نفسه حتى ظهرت فى شعره عن المرأة فى اللزوميات ، كداء عُياء قد غار فى تضاعيف جسم ثم ظهر قروحاً فوق إهاب الجسد .

لقد نطقت نفسه فى لزومياته عن الهوى ، ولم يك كلامه وحياً يوحى . وكانت غريزته الجنسية (المكفوفة) أسيرة فى جسمه كما كان جسمه أسيراً فى معتزله . ففى خلال هذا السجن المضاعف نظم أبو العلاء أشعاره فى تجريح المرأة ونقد أخلاقها وطبيعتها ، فأشعرَ فى حملاته هذه عنفهُ فى نقده وتقصّيه المرأة فى أكرم شىء لديها وأعزّه عندها ، وهو النسل والزواج .

وكذلك اصطرعت فى نفس أبى العلاء — حسب مذهب فرويد — طبيعته العادية وغريزته الجنسية ، فظفرت الاولى على الثانية . واصطلحت عليه الأحزان فى ضيعة الأمل ببغداد وضيق اليد وقلق البال فى الشام فأدّى به كل ذلك إلى اعتناق الزهد والهروب من الناس فحفزه كل هذا إلى العلوّ والتسامى .

ولم يسلم من يعتزل الناس من أن ينظر إليه (فرويد) نظرة نفسية ، لأن العُزلة مرض نفسى لمخالفته للقياس الاجتماعى .

وأبو العلاء اعتزل الناس وعالنهم بنيته فكان أول ما ندّ منه فى هذا الشأن أن كتب رسالته إلى أهل المعرة يقول فيها[1] :

« بعد أن قضيتُ الحداثةَ فانقضت ، وودّعت الشيبة فمضت ، وحلبتُ الدهر أشطرَه ، وجرّبت خيره وشرّه ، فوجدت أوفق ما أصنعه فى أيام

(١) رسائله بيروت ص ٨١ وأكسفورد ص ٣٤ .

الحياة عزلة . . . فأجمعت على ذلك واستخرت الله فيه بعد جلائه على نفر يوثق بخصائلهم فكلهم رآه حزماً ، وعده إن تم رشداً . وهو أمر أسرى عليه بليل . . . ليس بنتج الساعة ولا ربيب الشهر والسنة ولكنه غذيّ الحقب المتقادمة وسليل الفكر الطويل » .

وذكر ياقوت فى معجم الأدباء أنه أملى قوله :

« لزمت مسكنى منذ سنة أربعمائة واجتهدت فى أن أتوفر على تسبيح الله وتمجيده فأمليت أشياء تولى نسخها الشيخ أبو الحسن على بن عبد الله ابن أبى القاسم أحسن الله معونته » .

وليت شعرى ما الفرق بين معتزل أبى العلاء وقد توفر على تسبيح الله وتمجيده وبين الديارات التى يعتزل فيها الرهبان عالمَ الدنيا ، ويتوفرون فيها على الصلوات والتسبيح . وفى الديارات رهبان وراهبات تركوا وراء جدرانها عهود الصبا وأيام الشباب . وكانوا فى الحياة مثلنا يحبون ويبغضون ، ويلعبون ويلهون ويخرجون من جد إلى هزل ومن هزل إلى جد كما كان يفعل أبو العلاء فى عهود صباه وأيام شبيبته .

قف بكل واحد منهم وحلل نفسه واقرأ صحيفة ماضيه تجد فيها سطوراً كتبت الحادثات فيها الحب وشقاءه ، والمرأة وخيانتها ، والأمل وضياعه ، والطغاة ومظالمهم . تجد دنيا من الخطوب قامت على ساق وقدم . هرب من جحيمها هؤلاء جميعاً ونزلوا الأديار ينسون المواضى الكئيبة ويستقبلون بقية العمر بالتوفر على تسبيح الله وتمجيده وقد زهدوا فى الملذات والنسل والزواج .

فإذا تصورنا هذه الديارات عدنا إلى المعرة لا لنرى فيها ديراً وإنما لنشاهد فيها بيتاً صغيراً (ينزل إليه بدرجات ويقوم عليه ساباط) جددته فى هذا الوقت الحكومة السورية وخلعت عليه من الرونق والتقدير ما يناسب قيمة أبى العلاء . كان هذا البيت معتزل أبى العلاء . بل كان سجن نفسه

ومحتبس كهولته وشيخوخته . لقد لجأ إليه ليغسل روحه من أوضار الزمن . وينفض عن نفسه غبار الحوادث . نزله لا لينسى الماضى كما فعل الرهبان ؛ وإنما ليذكر هذا الماضى بما فيه من ضيعة أمل فى السَّفْرة البغدادية وما فيه من تجهم المجتمع وفساد الأخلاق وضلال العالم ، ومظالم الحكام ، ومناوشات الأعداء . ولم تكن عزلته تسبيحاً لله وتمجيداً فحسب كما انتوى ؛ وإنما كانت فلسفة ونقداً ونثراً وشعراً . وكيف اتفق أمر أبى العلاء فإنه آثر العزلة فى الدار ، إيثار الرهبان للأديار . ولم ينج فى عزلته من وساوس الجسم ، ونداء البدن ، وكانت غريزته الجنسية المكبوتة الغائرة فى سرائر نفسه ؛ تطفو حيناً بعد حين ، فيدفعها إلى أعماقها فتغور ثانية حيث كانت خافية . وقد صارح وكشف عن وصف غريزته حين كتب إلى خاله فقال[1] : « وأنا كما علمَ ، أدام الله تأييده ، وحشىّ الغريزة إنسىُّ الولادة » . وبدافع من هذه الغريزة الوحشية تجنب المجتمع الذى راح يطيل القول فى انتقاده ، وفى خلال لزومياته ذكر مذهبه فى العيش والحياة واعترف بأنه ككل الناس يعيش عيشهم ويجِدُّ كجدهم ويلهو كلهوهم :

إذا سألوا عن مذهبى فهو هيِّنٌ ... وهل أنا إلا مثل غيرى أبلهُ
خلقت من الدنيا وعشت كأهلها ... أجِدّ كما جدوا وألهو كما لهوا

ولولا خوفه من المقام الذميم وسوء العقبى لعاشر الزانيات فقال :

زوانىَ خوفُ المقام الذميم — عن أن أكون خليلَ الزوانى

وعنده سر أبانته الغوانى بالكناية كقوله :

وعندى سرٌّ بذىُّ الحديث — كنَتْ عنه فى العالمين الغوانى

إذن كان أبو العلاء فى معتزله (مكبوت الشهوات) وبهذا ظفر لمذهب فرويد الذى لا تستعصى عليه النفوس عند تحليلها . وكنت أدعو أن يمكننى العلم من نفس أبى العلاء ، حتى وجدته يقرّ فى لزومياته بهذه الصراحة :

---

(١) رسائله طبع بيروت ص ٦٩

تنازعنى إلى الشهوات نفسى فلا أنا منجحٌ أبداً ولا هِىْ

وبقوله بأنه أعرض عن اللذات لمَّا لم تُقبل عليه خيار هذه اللذات والشهوات :

ولم أعْرِضْ عن اللذات إلا لأن خيارها عنى شمسْنَهْ

ولو أن أحاسنها وأطايبها عليه أقبلت ، لكان له معها شأن أىّ شأن .

فلم تبق نفسه لغزاً أمام التحليل النفسى فى البسيكولوجيا الحديثة .

obeikandl.com